17 ème Année No. 814

Lundi — 7 — 2 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨١٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ ربيع الآخر سنة ١٣٦٨ — ٧ فبراير سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

قروية فيلسوفة

— ٢ —

قالت أم عامر — والمعنى لها واللفظ لى — : نشأت كما تنشأ القرويات الفقيرات ، على الخمول كالدجاج وأنا طفلة ، وبين الحقول كالذئاب وأنا صبية. آكل الجلبان وأستمرئه ، وأشرب الكدر وأستطيبه ، وألبس الخشن وأستليينه ، وأفترش الدثر وأستوطئه ، وأعالج الصعب وأستسهله . والذى أحل المر فى فمى ، وجعل القبيح فى عينى ، وألان الغليظ لجانبى ، صحة كصحة الظبى الشادن لم تجنح يوماً لراحة ولم تحتج أبداً إلى دواء ؛ ومرانة على عنف الطبيعة لا تفرق طاقتها بين صيف وشتاء ولا بين صباح ومساء ؛ ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء ... فأنا أشارك أبى فى عمل البيت ولا تستقل غير الكانون ، وأعاون أبى فى شغل الغيط ولا تستقل غير المحراث . وفى الفترات القصيرة القليلة بين عمل وعمل ، يجدونى فى الحارات أمرح أو فى القنوات أسيد ...

أذكر أنى كنت ذلت يوم جالسة على حافة الجدول المنساب أتندى أنا وأختى الصغيرة على خوان من النجيل ، رأيت ابنة الباشا مالك الأرض وسيد الناس مقبلة ، يقدمها كلبها الذئبى الضخم ، ويتبعها خادمها النوبى النحيل ، وفى يدها شمس تطوبه على قصبته وتنشره . وابنة الباشا صبية لا تجاوز العاشرة ، فهى فى مثل سنى ، تقيم طول عامها فى المدرسة بالقاهرة ، فلا تلم بالريف إلا أياماً فى أوائل الخريف ... أقبلت حتى وقفت بإزائى وحيتنى ثم ألقت شمسها فى الماء وجعلت تنظر إليه وتنظر إلىّ ... فدعوتها إلى الطعام على عادتنا ، فشكرت واعتذرت ثم قالت وهى تبتسم :

أنا كالبهائم الحشيش كالبهائم ؟

فقلت لها : ليس هذا حشيشاً ، وإنما هو بقلة من أحرار البقول نسميها السريس ؛ وأنا آكله ليخفف من ملوحة المش ويكسر من حرارة البصل .

فقالت وهى تمط شفتيها الرقيقتين : ولكن اللحم خير منه

فقلت لها : نعم خير منه ؛ ولكن موسمه لم يحن بعد . فنظرت إلىّ نظرة المتعجب المهتم وقالت :

موسمه ! وهل للحم موسم ؟

فأجبتها : نعم ، إن للحم مواسم خمسة لا نأكله إلا فيها : نصف شعبان ، وأول رمضان ، والعيد الصغير ، والعيد الكبير ، وليلة عاشوراء . فقالت : وما فا تأكلون بقية العام ؟

فقلت : فأكل الحبوب والبقول واللبن الرائب والجبن الأريش والمش المتّق ... فبدت على قسماتها الجميلة مخايل الشك فى قولى ، وهمّت أن تقول شيئاً لولا أن رأت خمّاز الشمس ينغطس وبموم فتشغلت به ، وجذبت الشمس من الماء ، فإذا به

يعلق بشبارة فى حجم كفها الصغيرة ، فاستطارها الفرح ، وهرها الاجاج ، وأخرجت الشص من فم السمكة المضطربة وناولتها الخادم ، وأرادت أن تطعمه فلم تجد طُعماً ، فسألتنى : من أين يأتون بالشابين الصغيرة ؟ فقلت لها وقد فهمت أنها تريد تلك الديدان الطويلة الحمر التى تعيش فى الطين : أنا آتيك ببعضها . ثم حفرت بجانب القناة وأخرجت لها من باطن الحفرة قطعة من الطين وأريتها كيف يجول فى أحشائها الدود ، فابتهجت لذلك ابتهاجاً شديداً . ومن ذلك اليوم وصلنى بها سبب من الأنس والعطف ، فكانت كلما زارت القرية افتقدتنى وطلبتنى ، فيرسلنى إليها أهلى غدوين مسرورين ، فألقاها فى حديقة القصر ، أو فى ساحة الجرن ، فتعدو على مخوضر النبات ، أو ترتجح على فروع الشجر ، أو تصطاد على حواف الماء ، أو تستبق على ظهور الحُمُر ، أو تتهادى على هامش الحقول ، وقدرتى على كل أولئك فوق قدرتها ، وكلنى أعلى من كلها ؛ فأنا أشأوها فى العدْو ، وأمهرها فى الارتجاح ، وأكثرها فى الصيد ، وأسبقها فى الرهان ، وأحلها فى اجتياز المواحل ، وآخذ بيدها فى تخطّى الحفَر ، وهى ترى ذلك كله فتعجب وتقول :

كيف تستطيعين ما لا أستطيع وأنت لا تطعمين اللحم ، ولا تأكلين الفاكهة ، ولا تذوقين الشكولاتة ؟

فأقول لها : إن الله يعطينا القوة لأنه خلقنا للعمل ، ويعطيكم الثروة لأنه خلقكم للانفاق !

وترعرعت سيدتى « جيهان » وشبّت ، فانقطعت عن حياة المدرسة واتصلت بحياة القرية ، فكنت عندها فى منزلة بين الصديقة والخادمة ؛ أقضى معها آخر النهار فى حديقتها ، أو أول الليل فى غرفتها ، أطرفها بأخبار القرية ، وأطربها بأغانى الريف ، وأنا أراها كل يوم تفتر وتضعف وتذوى ، وهى تراني كل ليلة أنشط وأقوى وأنتعش ، فيشتد عجبها ، وتزداد حيرتها ، وتحاول أن تعرف الأسباب التى جعلتنى قوية على الفاقة والحرمان والكد ، وجعلتها ضعيفة على الغنى والسرف والرفاهة . فمن هذه المحاولات أنها طلبت منى أن آتيها خفية بوجبة من المش والبصل والسريس وخبز الذرة ، ولم يكن فى الأرض سريس يومئذ ، فاستبدلت به الجلوين وجئت بما طلبت ، وكانت تنتظرنى وحدها فى كشك الحديقة . فلما وضعت بين يديها ما حملتُ نظرت إليه نظر الهائب ، وأقبلت عليه إقبال المضطر ، واقتطعت من الرغيف لقمة وغمستها فى المش ووضعتها فى فمها ، فلم تكد تذوقها حتى كرّشت من وجهها ، وخاوصت من عينها ، كما تفعل الفتاة الساذجة إذا أكرهها الطبيب على جرعة من الكنياك ، ثم تحاملت على نفسها فأساغت من الطعام بضع لقيمات ، ثم تقززت عنه وقالت فى اشمئزاز وتكرُّه :

كيف تعيشون على هذا وإن مذاق بعضه لأليم وإن مذاق بعضه لئاقه ؟

فقلت لها : ياسيدتى ، لقد أتيتك بطعامى ولم آتك بشهوتى ، ولو أتيتك بشهوتى لاحتجت أيضاً إلى ممدتى .

واعتلت صحة الآنسة جيهان من سأم الراحة ومعاناة الترف ، فقلّبوها بين المصايف والمشاتى ، ونقّلوها بين الجبال والأبحر ، وعرضوها على طب مصر وطب أوربا ، حتى شبا وجهها ، ونضر عودها ، وثاب إليها جسمها ، فزوجوها من أحد الباشوات القارونيين فلم تجد عنده أكثرهما وجدت عند أبيها . نعم ، وجدت الذئين لم تجدهما من قبل : متعة الزوج وفرحة الولد ؛ ولكنهما لذتان شائعتان بين الإنسان والحيوان تجدهما كل زوجة تحب وكل والدة تلد . وها هى ذى قد بلغت الغاية فى الثراء الضخم والجاه العريض ، أبوها باشا وأخوها باشا وزوجها باشا وابنها باشا ، وكل أولئك لم يعصمها من السكر والروماتزم والكُباد والسمن والرهل والأرق ، فلا تأكل إلا أقل الأكل ، ولا تنام إلا أيسر النوم ، ولا تتحرك إلا أثقل الحركة . وها أنا ذى لا أنفك على الحال التى كنت عليها : أبى فقير وزوجى ضرير وابنى الأول حقير وابنى الثانى أجير . ومع ذلك لا أزال شابة على رغم السنين ، قوية على رغم العمل ، صحيحة على رغم النصَب ، سعيدة على رغم الفقر ، أدير أسرتى ككل سيدة ، وأسيب قدّى ككل حرة ، وأرضى قسمتى ككل مسلمة ... وما أظن سيدتى جيهان تكره أن أكون أنا فى ثروتها وأن تكون هى فى محنتى ، أليس كذلك يا سيدى ؟

فقلت لها وأنا معجب بمنطقها وبيانها : بلى كذلك يا أم عاصم ! وإن لله فى ذلك حكمة ، إن صحة الفقراء تعويض من ثروة الأغنياء ، وإن السعادة من عند الله يمنحها من يشاء ويمنعها من يشاء !

المحامى الزيات